# جواسيس في الجزيرة العربية: الحرب العظمى والمؤسسات الثقافية للإمبراطورية السرية لبريطانيا في الشرق الأوسط

بريا ساتيا

مراجعة: روبرتو مازا

جواسيس في الجزيرة العربية، كتاب طال انتظاره حول البريطانيين في الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها. إنه يتجنب التركيز على لورانس وحده، ويعطي صورة شاملة للخلفية الثقافية للعملاء البريطانيين الذين عملوا في الشرق الأوسط وفي العراق على وجه الخصوص. سَرْدُ ساتيا مقنع والنتائج واضحة وتدعو إلى التفكير، يروي لنا الكتاب كيف أن الأفكار والمفاهيم المسبقة عن الجزيرة العربية وسكانها أصبحت المبادئ التي توجه تصرفات العملاء والمسؤولين البريطانيين في الشرق الأوسط منذ بداية القرن العشرين وخلال حقبة ما بين الحربين العالميتين.

كتاب ساتيا عمل عن التاريخ الثقافي البريطاني الذي يتقاطع مع العديد من المجالات -تاريخ الشرق الأوسط والتاريخ العسكري، والتاريخ الدبلوماسي، وتاريخ التكنولوجيا على سبيل المثال لا الحصر- الأمر الذي يجعله عملًا ثريًّا. أهم إسهام قدمه هذا الكتاب هو الكشف عن "الإمبراطورية الخفية" البريطانية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى في منطقة الشرق الأوسط وبخاصة في العراق. تجادل ساتيا بأنه كانت هناك إستراتيجية جديدة للسيطرة الاستعمارية نفذت من خلال الاستخبارات، والمراقبة الجوية التي تم استخدامها حديثًا، ونظريات المؤامرة الرسمية. كانت الإمبراطورية الخفية -وفقًا لساتيا- مفهومًا للترويج لإمبراطورية جَهَل الرأي العام الكثير عن سياستها الخارجية في الفترة ما بين الحربين العالميتين. تتحدى ساتيا في عملها صورة بريطانيا الأكثر شعبية في الفترة ما بين الحربين العالميتين باعتبارها البلد الذي دافع عن الديمقراطية ووقف في وجه الأعداء في روسيا البلشفية، وإيطاليا الفاشية، وألمانيا النازية. في جزأين، كما تم تقسيم الكتاب- تناقش ساتيا في البداية أسس فكرة الإمبراطورية السرية، والتي وفقًا لها ظهرت في المنطقة العربية. في الجزء الثاني، تبين ساتيا كيف عملت الإمبراطورية السرية التي تأسست في العراق، ودافعت عن نفسها، وأصبحت نموذجًا ليتم تصديره في سياقات أخرى.

هذا العمل يتبع نهجًا زمنيًّا وموضوعيًّا: زمنيًّا؛ تناقش ساتيا الفترة من عصر ما قبل الحرب وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ولكن بالبقاء ضمن الحدود التاريخية للثلاثينيات. وموضوعيًّا، تقفز ذهابًا وإيابًا من بريطانيا إلى السعودية مبينة كيف أن أعمال المخابرات البريطانية في المنطقة شكلتها التعريفات الخاصة بالمنطقة العربية، وكيف أن ما توصل إليه العملاء تم استخدامه في صياغة السياسة

القرارات على نطاق واسع. وبما أن المراجع مؤرخ للشرق الأوسط، فإن التركيز على تقييم عمل ساتيا سينصب على الاستخبارات البريطانية في الشرق الأوسط والمراقبة الجوية التي تم توظيفها في الدولة القومية التي قامت حديثًا في العراق.

يفتتح الكتاب بمناقشة مستفيضة عن مجتمع الاستخبارات البريطانية في بداية القرن العشرين وكيف أن خيالهم الإدواردي شكل تصورهم للمنطقة العربية. تظهر ساتيا بشكل مقنع كيف جعل هؤلاء العملاء المنطقة العربية ومغامراتهم في المشرق أداة لإطلاق مسيرتهم المهنية الأدبية. (ص61) المنطقة العربية التي نسجوها كانت محض خيال، مساحة فنية، وأصبحت مع اندلاع الحرب أيضًا منطقة إستراتيجية، وهو المكان الذي وفقًا لساتيا كان العملاء قادرين على فهمه وتفسيره. هؤلاء العملاء، بكلمات ساتيا، كانوا يفكرون مثل العرب (ص100)، يدعون المعرفة التي من شأنها تمكينهم من الوصول إلى السلطة: سلطتهم التي ستضمن لهم النفوذ والتمتع بقوة الدولة نفسها. لم يمد هؤلاء العملاء، المسؤولين البريطانيين بالمعلومات اللازمة لفرض الهيمنة على هذه المنطقة وحسب، بل وفقًا لساتيا، فإن أنشطتهم، وتقاريرهم عملت على تطبيع فكرة الشرق الأوسط على أنه فضاء للدسيسة. وكما توضح الكاتبة في الجزء الثاني من الكتاب، تم تصوير العرب جنسًا يرى أن العنف عنصر أساسي من ثقافتهم، الذي تشتد حاجتهم إليه.

يمثل الجزء الأول من الكتاب نهجًا مبتكرًا لموضوع الشعبية: الاستخبارات البريطانية في الشرق الأوسط والتي غالبًا ما تدور حول لورانس والتمرد العربي. ومع أن سرد ساتيا جديد وشامل، إلا أنه في بعض الأحيان يجعل القارئ يشعر بالإرهاق من الاقتباسات والقصص التي لا داعي لها. ما حققته ساتيا في الجزء الأول هو تحليل عميق لأجهزة الاستخبارات البريطانية وكيفية توظيفها في المدى الطويل. استغلال جمع المعلومات الاستخبارية في تشكيل الإمبراطورية الخفية هو محور الجزء الثاني من الكتاب. تفتتح ساتيا هذا الجزء بمناقشة كيف تحول فهم المنطقة العربية إلى نظريات مؤامرة، وكيف أثر ذلك في فهم المعاصرين لتلك الأحداث. (ص203) وباستخدام أدوات التحليل الثقافي العميق، تكشف ساتيا عن الطرق التي حاول من خلالها المسؤولون البريطانيون ووسائل إعلامهم شرح الثورات العربية ضد الحكم البريطاني. جاءت نظريات المؤامرة كنظريات رسمية دعمها العملاء، الذين عملوا في المنطقة خلال الحرب وظلوا الآذان والأعين في الشرق الأوسط. هذه البيئة، وفقًا لساتيا، أنتجت جنون العظمة، الذي تمت تحديته جزئيًا من خلال التقنية الجديدة المراقبة: المراقبة الجوية. هذه الوسيلة الجديدة للمراقبة لم تكن رخيصة فقط ، بل أكثر راحة، وكما توضح ساتيا كان لتطورها أيضًا أسباب ثقافية، العملاء على الأرض عرفوا العراق مكانًا مناسبًا للاستطلاع الجوي. وكان المقصود (ص240) من السيطرة الجوية للمخابرات هو توفير الأساس لإمبراطورية العملاء والقوات العسكرية. كان القصف الجوي إلى حد كبير نظامًا إرهابيًا. وتبين ساتيا كيف بقي جنون العظمة أساسًا منطقيًا قويًا جدًا للدفاع عن القوة الاستعمارية السرية. (ص277).

يوجّه كتاب "جواسيس في المنطقة العربية" بوضوح أصابع الاتهام إلى البريطانيين، ويكشف كيف أن حملات الإرهاب التي قادتها الدولة كانت نتاجًا لثقافة بريطانيا وقت الحرب والعقلية الإدواردية. عمل ساتيا على الرغم من أنه يفتقر

إلى النقاش حول المستفيدين من السياسات البريطانية، بوضوح- لا يركز فقط على الجواسيس في المنطقة العربية، بل إنه يخبرنا بشكل مقنع كيف تم استغلال المنطقة العربية، وعلى وجه الخصوص العراق كحقل تجارب لأعمال بناء الإمبراطورية السرية. على الرغم من أن ساتيا تختتم الكتاب بتذكير القراء بأن التاريخ لا يعيد نفسه، إلا أنها تشير بشكل واضح إلى أنه في ضوء الأحداث الجارية في المنطقة قد يكون من الحكمة استخلاص بعض الدروس من الإمبريالية في المنطقة العربية.